منهج القرآن في بناء الحصانة الفكرية: دراسة عقدية تحليلية في آيات تأسيس اليقين

The Qur'anic Methodology in Building Intellectual Immunity: A Doctrinal and Analytical Study of the Verses Establishing Certainty

أ.م. لفته معروف لفته يونس

Asst. Prof. Lafta Marouf Lafta Younis

المديرية العامة لتربية صلاح الدين / قسم تربية الاسحاقي

General Directorate of Education in Salah al-Din / Al-Ishaqi Education Department

lafta.maaroof.lafta@ec.edu.iq

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الحصانة الفكرية، اليقين، العقيدة الإسلامية، البصيرة، الهدى، الأمن الفكري.

Keywords: Qur'an, Intellectual Immunity, Certainty, Islamic Creed, Insight, Guidance, Intellectual Security.

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان المنهج القرآني في بناء الحصانة الفكرية من خلال دراسة الأسس العقدية والمسالك البيانية والاستدلالية التي يعتمدها القرآن الكريم في تأسيس اليقين وترسيخ البصيرة وصيانة الوعي من الزيغ والانحراف. وينطلق البحث من فرضية مفادها أن الحصانة الفكرية في التصور الإسلامي ليست مجرد حالة دفاعية طارئة، ولا إجراءً خارجيًا منفصلًا عن بنية الإيمان، بل هي ثمرة بناء داخلي متكامل ينشأ من رسوخ التوحيد، وصحة المرجعية، وسلامة الفطرة، واستقامة النظر، وارتباط العقل بالوحي ارتباطًا هاديًا منضبطًا.

وقد اعتمد البحث المنهج الاستقرائي في تتبع الآيات القرآنية ذات الصلة بمفاهيم اليقين، والبصيرة، والهدى، والزيغ، والاعتصام، واتباع الظن والهوى، كما اعتمد المنهج التحليلي في تفسير تلك الآيات وربطها بالبنية العقدية الإسلامية، مع الإفادة من كتب التفسير، وأصول الاعتقاد، وعلوم القرآن، والمعاجم اللغوية، وبعض الكتب الفكرية الرصينة ذات الصلة. وسعى البحث إلى تحرير مفهوم الحصانة الفكرية في ضوء المفاهيم القرآنية القريبة منها، والكشف عن الصلة الجوهرية بينها وبين اليقين والرؤية العقدية، ثم بيان الأصول العقدية التي يبني بها القرآن مناعة الفكر، وأخيرًا دراسة الوسائل العملية التي يعتمدها الوحي في تحصين الوعي من الشبهات والانحرافات.

وقد انتهى البحث إلى أن القرآن الكريم يبني الحصانة الفكرية على أصول كبرى، في مقدمتها: التوحيد، والإيمان بالوحي، والإيمان بالغيب والآخرة، وتحرير العقل من التقليد الأعمى واتباع الظن، وسلامة الفطرة، وتزكية القلب، والوعي بسنن الله في الهداية والضلال. كما تبين أن القرآن لا يقتصر في تأسيس اليقين على مجرد عرض الحقائق، بل يسلك مسالك متعددة، منها: الاستدلال بالخلق، والإتقان، والفطرة، والتاريخ، والسنن، والبداءة والإعادة، ونقض التناقضات، والاستفهام الكاشف، وربط العقل بالقلب. ثم يدعم ذلك بجملة من الوسائل العملية، مثل: رد المتشابه إلى المحكم، والتكرار التربوي للأصول، والقصص، وضرب الأمثال، والجدل المنضبط، وكشف الجذور النفسية للانحراف، والتحذير من الظن والقول بغير علم، والتثبت في الأخبار، وربط الوعي بالذكر والعبادة.

وخلص البحث إلى أن الحصانة الفكرية في المنهج القرآني لا تتحقق عبر ردود جزئية متفرقة، بل تبدأ من التأسيس العقدي العميق، ومن بناء الإنسان على اليقين والبصيرة وصحة المنهج في النظر والاستدلال. ومن ثم فإن القرآن الكريم يقدم نموذجًا متكاملًا في حماية الفرد والمجتمع فكريًا، من خلال إعادة تشكيل الوعي على أصول الهداية والثبات والتمييز بين الحق والباطل.

Abstract

This study aims to explain the Qur’anic method of building intellectual immunity through examining the doctrinal foundations, rhetorical strategies, and argumentative pathways employed by the Qur’an in establishing certainty, deepening insight, and protecting human consciousness from deviation and error. The study is based on the premise that intellectual immunity in the Islamic perspective is neither a temporary defensive state nor an external procedural measure detached from faith. Rather, it is

the fruit of an integrated inner construction grounded in firm monotheism, sound epistemic authority, pure innate disposition, disciplined reasoning, and a guided relationship between reason and revelation.

The research adopts an inductive method in tracing Qur'anic verses related to certainty, insight, guidance, deviation, adherence, conjecture, and desire. It also employs an analytical method in interpreting these verses and connecting them to the doctrinal structure of Islam, drawing upon classical Qur'anic exegesis, theological works, Qur'anic sciences, linguistic references, and selected authoritative intellectual writings. The study seeks to define the concept of intellectual immunity in light of related Qur'anic concepts, clarify its essential relation to certainty and sound doctrinal vision, identify the theological foundations through which the Qur'an constructs intellectual resilience, and examine the practical means by which revelation protects awareness from doubts and deviations.

The study concludes that the Qur'an builds intellectual immunity upon major foundations, foremost among them: monotheism, belief in revelation, belief in the unseen and the Hereafter, liberation of reason from blind imitation and conjecture, the soundness of innate human nature, purification of the heart, and awareness of divine laws governing guidance and misguidance. It also demonstrates that the Qur'an does not establish certainty merely by presenting doctrinal truths, but rather through multiple pathways, including reflection on creation, order and precision, innate disposition, history, divine patterns, origination and resurrection, exposing contradictions, probing questions, and integrating reason with the heart. This is further reinforced through practical means such as referring ambiguous matters to clear foundational truths, pedagogical repetition, Qur'anic narratives, parables, disciplined argumentation, exposing the psychological roots of deviation, warning against conjecture and speaking without knowledge, verification of reports, and connecting awareness to remembrance and worship.

The study ultimately finds that intellectual immunity in the Qur'anic method is not achieved through scattered partial rebuttals but through deep doctrinal grounding and the formation of a human being shaped by certainty, insight, and sound reasoning. Accordingly, the Qur'an offers a comprehensive model for protecting both the individual and society intellectually by reconstructing consciousness upon the foundations of guidance, steadfastness, and the ability to distinguish truth from falsehood.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان، وجعله نورًا للعقول، وشفاءً لما في الصدور، وربط به القلوب بمصادر اليقين، فكان منهجًا ربانيًا في بناء الإيمان وتقويم الفكر وصيانة الإنسان من مسالك الزيغ والاضطراب. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وبيّن للناس سبيل الهدى، وربّى أمته على بصيرة من أمرها، حتى استقامت عقيدتها، ورشد نظرها، ورسخت أصولها.

أما بعد، فإن من القضايا التي تستحق عناية علمية متجددة في الدراسات الإسلامية قضية حماية الوعي من الاضطراب والانحراف، وما يتصل بذلك من بناء اليقين، وترسيخ البصيرة، وصيانة العقل من التردد بين الشبهات والدعاوى المتعارضة. وتنبع أهمية هذا الموضوع من إن القرآن الكريم لم يقتصر على تقرير أصول الإيمان تقريرًا خبريًا مجردًا، بل بنى للهداية مسالك في النظر والاستدلال، وأقام موازين للتمييز بين الحق والباطل، بما يجعل الإيمان قائمًا على بصيرة لا على التقليد المجرد، ويجعل العقل أبعد عن الزيغ والاضطراب (ابن عاشور، 1984م، ص65).

ومع أن صور الانحراف الفكري تختلف باختلاف الأزمنة والبيئات، فإن أصول الوقاية منها في التصور الإسلامي تظل مرتبطةً بسلامة العقيدة، وصحة المرجعية، واستقامة المنهج في الفهم والاستدلال. ومن هنا فإن الحصانة الفكرية لا ينبغي أن تُفهم على أنها مجرد حالة دفاعية عابرة، بل هي بناء داخلي متين ينشأ من رسوخ التوحيد، ووضوح التصور الإيماني، وحسن الصلة بالوحي، وتحرير العقل من أسر التقليد والهوى والظن. وقد دلّت كتب التفسير والعقيدة على أن القرآن يعالج الزيغ من جذوره، لأنه يواجه فساد التصور قبل فساد السلوك، ويقيم اليقين قبل أن يواجه آثار الشك والانحراف (الغزالي، 2004م، ص9).

وينطلق هذا البحث من فرضية علمية مؤداها أن القرآن الكريم أسس للحصانة الفكرية من خلال بنائه لليقين العقدي، لا من خلال الرد الجزئي على الشبهات فحسب. فهو يربط الإنسان بدلائل التوحيد، ويوقظه إلى آيات الله في الآفاق والأنفس، ويقرر حجية الوحي، ويذم اتباع الظن، وينقض التقليد الأعمى، ويبين سنن الله في الهداية والضلال، وبذلك يقيم في النفس بنيةً معرفيةً وإيمانيةً تجعلها أقدر على الثبات أمام عوامل التشويش والانحراف. وقد نبه المفسرون إلى أن من مقاصد القرآن حمل الإنسان على النظر الصحيح، وربط العلم بالإيمان، وإخراج المكلف من

الغفلة إلى التبصر والاعتبار (الطبري، 2001م، 39/1).

وتنبع أهمية هذا الموضوع كذلك من أن كثيرًا من الاضطرابات الفكرية ترجع في جوهرها إلى خلل في الأصول الكبرى: كاضطراب مفهوم التوحيد، أو ضعف اليقين بالوحي، أو سوء فهم العلاقة بين العقل والنقل، أو الانقياد للهوى تحت ستار النظر. ومن هنا فإن العودة إلى القرآن للكشف عن منهجه في تأسيس اليقين لا تمثل معالجةً وعظية فحسب، بل تمثل تأسيسًا علميًا لمفهوم الحصانة الفكرية من داخل البنية العقدية نفسها. وقد قرر علماء النظر أن فساد النتائج تابع في كثير من المواضع لفساد المقدمات، وأن صحة الاعتقاد لا تنفصل عن صحة النظر الذي يفضي إليه (الجويني، 1950م، ص31؛ الشاطبي، 1997م، 274/4).

وتتحدد مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي: كيف أسس القرآن الكريم للحصانة الفكرية من خلال بنائه لليقين العقدي؟ ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة، من أهمها: ما مفهوم الحصانة الفكرية في ضوء البناء العقدي القرآني؟ وما الصلة بين اليقين وسلامة الرؤية العقدية؟ وما أبرز الأصول العقدية التي يبني بها القرآن مناعة الفكر؟ وما الوسائل القرآنية العملية في وقاية العقل من الشبهات والانحرافات؟

ويهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم الحصانة الفكرية في ضوء المفاهيم القرآنية القريبة منها، وتحليل مفهوم اليقين وصلته ببناء الرؤية العقدية، والكشف عن الأصول العقدية التي تؤسس الحماية الفكرية في الإسلام، ثم دراسة المسالك القرآنية التي تسهم في تحصين الفكر من الشبهات والانحرافات، وصولًا إلى إبراز الأثر المعرفي والتربوي لمنهج القرآن في حماية الفرد والمجتمع.

وقد اعتمد البحث المنهج الاستقرائي في تتبع الآيات ذات الصلة بمفاهيم اليقين، والبصيرة، والهدى، والزيغ، والاعتصام، واتباع الظن والهوى، كما اعتمد المنهج التحليلي في تفسير هذه الآيات وربطها ببنية العقيدة الإسلامية، مع الإفادة من كتب التفسير، وعلوم القرآن، وأصول الاعتقاد، والمعاجم اللغوية، وبعض الكتب الفكرية الرصينة ذات الصلة.

وتتكشف أهمية هذا المسار البحثي كذلك في أنه يسعى إلى وصل القضايا الفكرية المعاصرة بجذورها القرآنية الأصيلة؛ وقد دلّ القرآن في مواضع متعددة على أن اليقين هو المرتبة التي ينكشف عندها الحق انكشافًا يرفع التردد والشك، حتى إن بعض المواضع عبّر فيها عن اليقين

بلفظ الظن، إذا كان المراد به العلم الجازم. وهذا يؤكد أن رسوخ اليقين من الأصول المركزية في بناء الوعي الإيماني (الشنقيطي، د.ت، 298/3).

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يُقسم إلى مبحثين:

المبحث الأول: الحصانة الفكرية في ضوء البناء العقدي القرآني.

المبحث الثاني: المنهج القرآني في تأسيس اليقين وتحقيق الحماية الفكرية.

ثم خُتم البحث بأهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

الحصانة الفكرية في ضوء البناء العقدي القرآني

المطلب الأول: مفهوم الحصانة الفكرية وصلتها باليقين والرؤية العقدية

إنَّ تحرير مفهوم الحصانة الفكرية في إطار البحث العقدي القرآني يقتضي البدء من أصل المعنى اللغوي، ثم تتبُّع تحوّله الاصطلاحي، ثم ربطه بالبنية المفهومية التي أقامها القرآن الكريم لبناء الوعي المؤمن. فلفظ الحصانة في أصله العربي يدور حول معنى المنع، والوقاية، والقوة، والامتناع من الاختراق. وقد نصَّ ابن فارس على أن مادة (ح ص ن) ترجع إلى أصل يدل على المنعة والاحتراز والقوة، وهو أصل تتولد منه معاني التحصين والحصن والحفظ من المفسدات (ابن فارس، 1972م، 85/2). كما بيَّن ابن منظور أن الحِصْن هو الموضع المنيع الذي يُلجأ إليه اتقاءً للخطر، وأن من لوازم هذا الأصل معنى الصيانة والحفظ والمنع من التسلط الخارجي (ابن منظور، 1414هـ، 118/13). وإذا نُقل هذا الأصل إلى المجال المعرفي، أمكن القول إن الحصانة الفكرية هي: حال من المنعة الداخلية التي تصون العقل والقلب من التزعزع أمام الشبهات، وتحفظ البنية الإدراكية من التصدع والانحراف. وهذا النقل ليس نقلاً تعسفيًا، بل هو امتداد مشروع لاستعمال عربي أصيل ينتقل من الحماية الحسية إلى الحماية المعنوية.

غير أن هذا المفهوم، وإن كان بصيغته التركيبية الحديثة لم يرد بلفظه في النصوص الأولى، فإن مضمونه حاضر بقوة في القرآن الكريم من خلال منظومة من الألفاظ والمقاصد، مثل: اليقين، والبصيرة، والثبات، والاعتصام، والهدى، والفرقان، وسلامة الفطرة، والحذر من الزيغ والهوى والظن. فالقرآن لا يستعمل تعبير "الحصانة الفكرية" بلفظه المعاصر، لكنه يقيم في النفس المؤمنة ما هو أعمق من ذلك المصطلح؛ إذ يبنيها على أصول معرفية وروحية تجعلها أبعد عن

القابلية للاختراق والانهيار. وقد نبه ابن عاشور في مقدمات تفسيره إلى أن من مقاصد القرآن تحرير العقول من الأوهام، ونقلها من الجمود والتقليد إلى النظر السديد، وهو معنى يدخل دخولًا مباشرًا في جوهر ما يسمى اليوم بالحماية الفكرية أو الحصانة الفكرية (ابن عاشور، 1984م، 38/1). كما أشار دراز إلى أن القرآن لا يقتصر على إبلاغ حقائق الإيمان، بل يصوغ في الوقت نفسه طريقةً في النظر وفنًّا في الإقناع يكوّنان في الإنسان وعيًا يقظًا لا ينساق بسهولة إلى الباطل (دراز، 2005م، ص109).

ومن هنا فإن تعريف الحصانة الفكرية في ضوء القرآن لا ينبغي أن يُختزل في مجرد ردّ الشبهة بعد وقوعها، لأن هذا الفهم يختزل الحماية في بُعد دفاعي طارئ، بينما القرآن يتعامل مع القضية من منطلق أعمق، وهو بناء الإنسان من الداخل. وعليه يمكن أن تُعرّف الحصانة الفكرية في هذا البحث بأنها: القدرة المتولدة من رسوخ التوحيد، وصحة المرجعية، واستقامة النظر، وسلامة الفطرة، على حماية الوعي من الشبهات والانحرافات والثبات على الحق عند تعرضه للاهتزاز. وهذا التعريف لا يجعل الحصانة الفكرية مجرد مهارة جدلية أو قدرة خطابية، بل يجعلها ثمرة بنية عقدية شاملة، لأن الإنسان قد يجيد الجدل ولا يكون محصنًا، وقد يملك أدوات الجواب لكنه ينهار عند أول فتنة إذا لم يكن يقينه متأصلًا. وقد قرر الغزالي في سياق حديثه عن النظر والاعتقاد أن المقصود من العلم ليس صورة العبارة، بل حصول النور الذي تنكشف به الحقائق، وهو ما يفهم منه أن الحماية الحقيقية لا تقوم على ألفاظ محفوظة، وإنما على علم راسخ يثمر الطمأنينة والانكشاف (الغزالي، 2003م، ص9).

وهنا تظهر الصلة الوثيقة بين الحصانة الفكرية واليقين؛ إذ اليقين ليس عنصرًا ملحقًا بالبناء العقدي، بل هو مادته المركزية التي تمنحه الثبات والرسوخ. فالإنسان لا يصير محصنًا لمجرد أنه انتسب إلى عقيدة ما، بل بقدر ما تتحول هذه العقيدة في نفسه إلى يقين مبني على برهان، مستقر في القلب، حاضر في الوعي، مؤثر في النظر والحكم. ومن اللافت أن القرآن حين وصف المتقين في مطلع سورة البقرة قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]، فعدَل عن مجرد الإيمان إلى اليقين، إشارةً إلى أن الاستقامة الحقيقية تتعلق بدرجة الرسوخ لا بمجرد أصل التصديق. وقد فسر الطبري هذا اليقين بأنه العلم الجازم الذي لا يخالطه شك فيما وعد الله به من البعث والجزاء (الطبري، 2001م، 251/1). وذكر القرطبي أن معنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ﴾ هو: أي بالبعث والنشر هم عالمون، وهو تفسير يدل على أن اليقين هنا ليس ظنًا ولا احتمالًا، بل علمٌ راسخٌ يكوّن في نفس المؤمن ثباتًا عقديًا ومعرفيًا، ويمنحه قدرةً على مقاومة الزيغ والاضطراب الفكري (القرطبي، 1964م، 180/1). وهذا يكشف أن القرآن يجعل اليقين حالةً معرفية روحية تتجاوز حدود المعرفة الذهنية الباردة.

ويتأكد هذا المعنى إذا تأملنا العلاقة بين اليقين والبصيرة في الخطاب القرآني؛ لأن البصيرة ليست مجرد قدرة ذهنية على الاستنتاج، بل هي العلم الذي اقترن بانكشاف وهداية ونفاذ إلى مواضع الحق. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]. وفسر الطبري البصيرة هنا بأنها اليقين والعلم الذي لا لبس معه في طريق الدعوة إلى الله (الطبري، 2001م، 378/13). ويتأكد ارتباط الحصانة الفكرية في القرآن بمفهوم البصيرة؛ لأن القرآن لم يجعل الدعوة إلى الله قائمة على مجرد الانتماء أو التلقي المجرد، بل على أساسٍ من الحق واليقين. وقد عبّر ابن عطية عن هذا المعنى بدقة، فذكر أن البصيرة هي معتقد الإنسان في الأمر من الحق واليقين، وهو تفسير يدل على أن البصيرة في الخطاب القرآني ليست مجرد معرفة أولية، بل وعيٌ عقدي راسخ يميز به المؤمن بين الهدى والضلال، ويقوم عليه الثبات في الدعوة والاتباع، ومن ثم تمثل البصيرة أحد الأركان المركزية في بناء الحصانة الفكرية (ابن عطية، 1422هـ، 285/3–286).

كما أن القرآن يربط بين سلامة الفكر وسلامة القلب، فلا يعامل الاضطراب العقدي على أنه خلل ذهني محض، بل يرده أحيانًا إلى عمى باطني يمنع صاحبه من الانتفاع بالحجة وإن كانت ظاهرة. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]. وقد أوضح الرازي أن المراد ليس نفي عمى الأبصار الحسي، وإنما تقرير أن العمى الحقيقي المانع من الاهتداء هو عمى القلب عن إدراك الحق والاعتبار (الرازي، 1420هـ، 233/23). وبيّن ابن عاشور أن الآية ترسم فرقًا دقيقًا بين مجرد الإدراك الحسي وبين الانتفاع الوجداني العقلي بالدلائل، فكم من إنسان رأى البرهان بعينه ولم يهتدِ إليه لأن قلبه لم يكن صالحًا لتلقيه (ابن عاشور، 1984م، 223/17). وهذه الحقيقة المنهجية أساسية في فهم الحصانة الفكرية؛ لأنها تعني أن حماية الوعي لا تُنال بالمعرفة المجردة وحدها، بل بصلاح الباطن الذي يجعل تلك المعرفة نافعة ومؤثرة.

ومن هنا فالحصانة الفكرية في التصور القرآني لا تنفصل عن الرؤية العقدية الكلية؛ لأن الفكر

لا يتحصن في فراغ، بل يتحصن حين يكون جزءًا من تصور شامل للوجود والإنسان والحياة والمصير. فإذا استقرت في النفس حقيقة التوحيد، وثبتت مرجعية الوحي، ورسخ الإيمان بالغيب والآخرة، وصح فهم الإنسان لدوره وابتلائه ومآله، صار أكثر قدرة على قراءة الجزئيات في ضوء الكليات، وأبعد عن الاضطراب أمام الأسئلة الطارئة. أما إذا فقد هذا النسق الجامع، فإن ذهنه يبقى قابلًا للاهتزاز كلما وردت عليه شبهة جزئية أو دعوى جديدة. وقد أشار الجويني في حديثه عن أصول النظر إلى أن فساد النتائج غالبًا ما ينشأ من فساد الأصول أو اضطراب المقدمات، وأن الاستمساك بالحق لا يكون إلا بإحكام أسبابه من البداية (الجويني، 1950م، ص31). وهذا ينسجم تمامًا مع فكرة الحصانة بوصفها بناءً تأسيسيًا لا علاجًا إسعافيًا.

ويُفهم من هذا أيضًا أن الحصانة الفكرية تختلف عن كثرة المعلومات؛ فليس كل مثقفٍ محصنًا، وليس كل حافظٍ للمسائل سالمًا من الاضطراب. فقد يملك الإنسان ثروة من المعلومات الكلامية أو الفقهية أو التاريخية، لكنه إذا لم يملك منهجًا في التمييز بين المحكم والمتشابه، وبين القطعي والظني، وبين الدليل والشعار، بقي عرضة للخلل. ولهذا كان القرآن يلح على مفهوم الفرقان، وهو القدرة على التمييز التي يهبها الله للمؤمنين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]. وذكر القرطبي أن الفرقان هنا يشمل نورًا في القلب يميز به المؤمن بين الحق والباطل، وبين المخرج والمدخل في الملمات (القرطبي، 1964م، 396/7). وذكر أبو حيان أن هذا الفرقان ليس مجرد معلومة، بل قوة إدراكية يترتب عليها حسن الحكم وسلامة المسلك (البحر المحيط، 2000م، 295/5). فالحصانة الفكرية إذن ليست امتلاءً ذهنيًا فقط، وإنما هي امتلاك لمعيار التمييز.

ويؤكد القرآن كذلك أن من علامات الوعي غير المحصن الانقياد للتقليد الأعمى، وهو لون من ألوان هشاشة الفكر؛ لأن صاحبه لا ينطلق من بصيرة، بل من ضغط البيئة أو العادة أو الموروث غير المفحوص. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: 170]. وقد فسر الرازي الآية بأنها ذم لمن ترك الدليل واتبع مجرد المألوف والموروث، وهذا عنده من أقوى دلائل فساد طريقة التقليد إذا أُطلقت من غير تمييز (الرازي، 1420 هـ، 188/5). وأوضح الشاطبي أن الاتباع الممدوح هو ما كان قائمًا على أصل معتبر، أما تعطيل النظر عند ورود الدليل فهو من موارد الانحراف (الشاطبي، 1997م، 274/4). ومن

هنا فإن الحصانة الفكرية في بعدها القرآني تعني أيضًا تحرير الإنسان من الاستسلام غير الواعي للمرجعات البشرية حين تعارض الوحي والبرهان.

ويُضاف إلى ذلك أن القرآن لا يجعل الحصانة الفكرية مجرد حماية من الانحراف السلبي، بل يجعلها قوة إيجابية منتجة للثبات والطمأنينة. فالإنسان المحصن لا يتميز فقط بقدرته على دفع الشبهة، بل بقدرته على السكون إلى الحق، والاطمئنان به، والنظر من خلاله إلى الوقائع والأفكار. وقد قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. وذكر القرطبي أن الطمأنينة هنا سكون النفس إلى وعد الله وهداه بعد القلق والتردد (القرطبي، 1964م، 314/9). وشرح الغزالي في مواضع من كتبه ويظهر من كلام الغزالي أن اليقين في حقيقته ليس مجرد تصور ذهني للآخرة، بل علمٌ مثمرٌ يُحدث تحولًا في ميزان النظر والتقدير؛ إذ إن الإنسان لا يزهد في الدنيا زهدًا صحيحًا إلا إذا استقر في نفسه أن المتروك حقير بالإضافة إلى المأخوذ، وأن ما عند الله باقٍ، وأن الآخرة خير وأبقى. ومن ثم شبَّه الغزالي الدنيا بالثلج الذي يذوب ويفنى، وشبَّه الآخرة بالجوهر الذي لا يعتريه فناء؛ ليقرر أن قوة اليقين بالتفاوت بينهما هي التي تُنشئ الرغبة في مفارقة الفاني إلى الباقي. وهذا المعنى يكشف أن اليقين في التصور الإسلامي ليس مجرد علم نظري، بل قوة باطنية تعيد تشكيل وعي الإنسان، وتحصنه من الاغترار بالعاجل الزائل (الغزالي، د.ت، 217/4). وهذا يعني أن الحصانة الفكرية ليست فقط بنية دفاعية، بل هي كذلك حالة إيجابية من السكينة المعرفية والاطمئنان الإيماني.

وإذا جُمعت هذه المعاني تبين أن الحصانة الفكرية في ضوء القرآن ليست مصطلحًا عرضيًا، بل هي ثمرة تفاعل جملة من المقومات: اليقين، والبصيرة، والفرقان، والثبات، والاعتصام، وسلامة القلب، وصحة المنهج، واستقامة المرجعية. وبهذا المعنى تصبح الحصانة الفكرية وصفًا لحال الإنسان الذي لم يعد فكره سائبًا بين المؤثرات، ولا إيمانه معلقًا بالمزاج أو البيئة، بل صار مؤسسًا على وعي عقدي عميق. وهذا ما يجعل دراسة هذا المفهوم من خلال القرآن ليست ترفًا اصطلاحيًا، وإنما دخولًا في صميم منهج الوحي في بناء الإنسان.

المطلب الثاني: الأصول العقدية التي يبني بها القرآن مناعة الفكر

إذا تقرر أن الحصانة الفكرية ليست مجرد ردّ فعل على الشبهة، بل هي بناءٌ داخليٌّ متين، فإن النظر العلمي يقتضي الانتقال إلى بيان الأصول العقدية التي أقام القرآن عليها هذا البناء.

والقرآن الكريم لا يحصّن الفكر بمعالجة جزئية أو مؤقتة، وإنما يضع في نفس المؤمن أصولًا كبرى تعيد تشكيل نظرته إلى الله، وإلى الكون، وإلى الإنسان، وإلى المعرفة، وإلى الغاية من الوجود. ومن هنا كانت مناعة الفكر في التصور القرآني ثمرةً طبيعية لرسوخ هذه الأصول في الوعي والقلب معًا؛ لأن الفكر لا يثبت في مواجهة الانحراف ما لم يستند إلى أرضية عقدية صلبة، تضبط مصادره، وتوجّه مساراته، وتمنع اضطرابه عند ورود العوارض والشبهات.

ويأتي في مقدمة هذه الأصول التوحيد، لأنه الأصل الذي تنتظم به جميع التصورات، وتنتفي به الفوضى المرجعية، وتتحدد به جهة العبودية والاستمداد والمعيار. فالتوحيد في القرآن ليس مجرد نفي الشريك في العبادة على المستوى الشعائري، بل هو أيضًا تأسيس لوحدة الحقيقة العليا التي تُردّ إليها سائر المعاني، وتُوزن بها جميع التصورات. ولهذا كان القرآن يعالج الشرك لا بوصفه انحرافًا تعبديًا فقط، بل بوصفه فسادًا في بنية النظر ذاتها؛ لأنه يوزع القلب والعقل بين مرجعيات متفرقة، ويشتت وعي الإنسان بين قوى متوهمة ومقامات باطلة. وقد دلّ قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] على أن وحدة المدبر أصل في انتظام الوجود وسلامة نظامه، وأن التعدد يفضي إلى الفساد والاختلال. وقد أوضح الرازي أن وجه الاستدلال في الآية قائم على أن تعدد الآلهة يفضي إلى التمانع، والتمانع يستلزم فساد العالم أو امتناع وجوده على هذا النسق المحكم، فلما ثبت انتظام الكون علم أن مدبره واحد (الرازي، 1420 هـ، 127/22). وذكر الطبري أن معنى الآية أن وجود آلهة متعددة يوجب الاختلاف والتدافع، وذلك يناقض ما يشاهده الناس من اتساق الخلق وانتظامه (الطبري، 2001م، 264/16).

ومن هنا فإن أثر التوحيد في بناء الحصانة الفكرية يتجاوز الإطار الاعتقادي المجرد إلى الإطار المعرفي والمنهجي؛ لأن الإنسان الموحد لا يجعل الحق تابعًا للبيئة أو للهوى أو للسلطة أو للكثرة، بل يرده إلى الله وحده، ويزن به الأقوال والمذاهب. ومن ثم فإن التوحيد يحرر العقل من التبعية المطلقة لغير الوحي، ويمنعه من أن يتخذ العادات أو الأشخاص أو البنى الاجتماعية مرجعيات نهائية. وهذا المعنى ظاهر في نقد القرآن لأهل الشرك حين كانوا يحتجون بالموروث ويجعلونه أساسًا للاعتقاد، فقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23]. وقد بيّن ابن عطية أن الآية تتضمن ذمًا لمن جعل مجرد وجدان الآباء على طريقة ما دليلًا على صحتها، مع ترك النظر فيما قامت عليه من برهان أو بطلان (ابن عطية،

1422هـ، 51/5). وذكر ابن عاشور أن القرآن يكشف هنا عن آلية نفسية ومعرفية تفسد بها العقول، وهي الاستعاضة عن الدليل بسلطان العرف والجماعة، وهي من أعظم ما يناقض الحصانة الفكرية (ابن عاشور، 1984م، 158/25).

ويلي أصل التوحيد أصلٌ عظيم لا تستقيم الحصانة الفكرية بدونه، وهو الإيمان بالوحي بوصفه المصدر الأعلى للهداية والمعيار الحاكم في تقرير حقائق الوجود ومناهج النظر. فالقرآن لا يلغي وظيفة العقل، لكنه يضع له مرجعًا هاديًا يخرجه من التردد بين الاحتمالات غير المنضبطة، ومن الفوضى التي تنشأ حين يترك الإنسان وحده في قضايا تتجاوز طاقته أو تتعلق بالغيب والغاية والمعنى النهائي. ولهذا وصف الله كتابه بأنه هدى ونور وفرقان، فقال سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15]. وقد ذكر الطبري في تفسير مطلع سورة البقرة أن الهداية هنا هي البيان والدلالة إلى الصواب لمن كان طالبًا للحق قابلاً له (الطبري، 2001م، 233/1). وأوضح ابن عاشور أن وصف القرآن بالهدى يقتضي أنه ليس مجرد كتاب أحكام أو تلاوة، بل مصدر تأسيسي يهدي العقول والقلوب إلى سواء السبيل في المعرفة والعمل معًا (ابن عاشور، 1984م، 228/1).

والإيمان بالوحي من حيث أثره في مناعة الفكر يضع للإنسان مرجعية متجاوزة لا تخضع لتقلبات الزمن والأهواء، وتمنحه معيارًا يرد إليه ما يطرأ من تصورات ونظريات ومذاهب. فالعقل إذا فقد المرجع الأعلى بقي عرضة للتشظي، لأن كل دعوى يمكن أن تدّعي لنفسها المعقولية أو المنفعة أو الشيوع. أما إذا استقر في النفس أن الوحي هو الميزان الأعلى، فإن العقل لا يعود سائبًا في فضاء التعدد المربك، بل يصير نظره منضبطًا بمصدر معصوم من الخطأ في أصول الهداية. وقد قرر الجويني أن السمع أصل في معرفة كثير من تفاصيل الاعتقاد والشرع، وأن العقل وإن دل على الأصول الكلية، فإنه لا يستقل بإدراك ما يحتاج فيه إلى بيان الوحي، ومن ثم فإن انتظام المعرفة الدينية لا يتم إلا بالتكامل بين النظر والسمع (الجويني، 1950م، ص32). وذكر الغزالي في تقرير العلاقة بين العقل والشرع أن العقل أصل في فهم الخطاب، لكن الشرع نورٌ يهدي العقل ويكمله، وأن التعارض المتوهم بينهما ناشئ غالبًا من فساد الفهم أو سوء الترتيب (الغزالي، 2003م، ص23). وهذه القاعدة ذات أثر بالغ في الحصانة الفكرية؛ لأنها تمنع من الوقوع في ثنائية مصطنعة بين العقل والوحي، وهي من أبرز منابع الاضطراب المعرفي قديمًا وحديثًا.

ومن الأصول العقدية الكبرى التي يبني بها القرآن مناعة الفكر الإيمان بالغيب. وهذا الأصل في غاية الأهمية؛ لأنه يحمي العقل من الاختزال الحسي الذي يحصر المعرفة فيما تدركه التجربة المباشرة وحدها. فالقرآن افتتح صفات المتقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، فقدم هذا الأصل على غيره، تنبيهًا إلى أن الهداية القرآنية لا تدخل إلى نفس لا تقبل أن للوجود جوانب أعلى من دائرة الحس. وقد ذكر الراغب الأصفهاني أن الغيب هو ما غاب عن الحواس، لا ما استحال إدراكه من حيث الجملة، وأن الإيمان به هو التصديق بما أخبر الله به مما لا تناله المشاهدة المباشرة (الأصفهاني، 2009م، ص616). وفسر الطبري هذه الآية بأن المتقين يصدقون بما غاب عنهم مما أخبر الله به، كالجنة والنار والبعث والملائكة وسائر ما ثبت بخبر الوحي (الطبري، 2001م، 235/1). وهذا الأصل يحصّن العقل من النزعة المادية التي لا تعترف إلا بالمشاهد، ويمنعه من الوقوع في أسر الحس بوصفه المصدر الوحيد للمعرفة.

ويتصل بالإيمان بالغيب أصلٌ آخر له أثر عظيم في بناء الحصانة الفكرية، وهو الإيمان بالآخرة. فالقرآن يخص الآخرة في مواضع عديدة بدرجة خاصة من الرسوخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]، لأن هذا الأصل يعيد ترتيب الحياة الإنسانية كلها في ضوء الغاية والمآل. فالإنسان الذي يوقن بالآخرة لا يبني أحكامه النهائية على ما هو عاجل أو نافع في الظاهر فقط، بل يردّ الأمور إلى حسابها الأخروي، ويدرك أن الظلم والهوى والضلال ليست ممارسات عابرة بلا عاقبة، وإنما لها امتدادات في المصير والجزاء. وقد ذكر القرطبي أن يقين المؤمنين بالآخرة هو الذي حملهم على الجد في الطاعة، والحذر من المخالفة، وعدم الاغترار بالدنيا وزينتها (القرطبي، 1964م، 181/1). وبيّن ابن عاشور أن تخصيص الآخرة باليقين في هذا الموضع يدل على أن هذا الأصل هو من أعظم ما يثبت النفس ويجعلها متماسكة في مواقف الفتنة والابتلاء (ابن عاشور، 1984م، 226/1). ومن هنا فإن الحصانة الفكرية لا تُفهم فهمًا كاملًا إذا جُرّدت من هذا البعد الأخروي؛ لأن الفكر الذي ينقطع عن الغاية يسهل أن يقع في العبثية أو النفعية أو اليأس أو الانهزام أمام الإغراءات العاجلة.

ومن الأصول القرآنية المحكمة كذلك تحرير العقل من التقليد الأعمى واتباع الظن. فالقرآن يربّي الإنسان على طلب الدليل، ويمدح التعقل والتفكر والتبصر، ويذم القول بلا علم، كما يذم اتباع المألوف إذا تعارض مع الحق. وهذه السمة من أبرز سمات البناء القرآني للمناعة الفكرية؛ لأن

العقل الذي لم يتعلم كيف يميّز بين البرهان والدعوى يبقى مهيأ لقبول أي خطاب مزخرف. وقد قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 28]. وقد أوضح الرازي أن الآية تقرر قاعدة معرفية كبرى، وهي أن الظن إذا جُعل أساسًا في القضايا التي تحتاج إلى يقين صار سببًا للضلال، لأن ما لا ينهض حجةً في نفسه لا يجوز أن يُبنى عليه أصل الاعتقاد (الرازي، 1420 هـ، 259/28). كما أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170] يدل على أن القرآن لا يذم مجرد الاتباع، بل يذم الاتباع الذي عُطّل فيه النظر، وصار الإنسان فيه تابعًا لا باحثًا عن حق (الشاطبي، 1997م، 274/4). ومن ثَمّ فإن مناعة الفكر القرآنية لا تقوم على إلغاء العقل، بل على تهذيبه وتحريره من السقوط في أسر التقليد أو الظنون الفاسدة.

ولا يكتمل هذا البناء من غير أصلٍ جوهري هو سلامة الفطرة؛ لأن القرآن يرى أن الإنسان مهيأ في أصل خلقته لقبول الحق، وأن الانحراف طارئ غالبًا بسبب التبديل أو الغفلة أو تأثير البيئة والهوى. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]. وقد ذكر ابن كثير في تفسير الآية أن الله فطر الخلق على معرفته وتوحيده وقبول دينه إذا سلموا من العوارض المفسدة (ابن كثير، 1999م، 313/6). وأوضح ابن عاشور أن الآية تدل على أن الدين الحق موافق للفطرة السليمة، وأن العدول عنه ليس انتقالًا إلى أصل آخر، بل خروج عن الجبلة التي فُطر الناس عليها (ابن عاشور، 1984م، 90/21). وهذا الأصل له أثر مهم في الحصانة الفكرية؛ لأنه يجعل القرآن لا يكتفي ببيان الدليل، بل يخاطب ما في النفس من استعداد أولي للحق، ويوقظها من عوامل الطمس والاعتياد. فالمحصّن فكريًا ليس فقط من يملك الأدلة، بل من بقيت فطرته قابلة للتفاعل مع تلك الأدلة دون تشويه عميق.

ويرتبط بسلامة الفطرة أصلٌ لا يقل عنه أهمية، وهو تزكية القلب وتطهيره من أدواء الكبر والهوى والحسد؛ لأن القرآن يكشف أن كثيرًا من الانحرافات العقدية ليست ناشئة عن ضعف الدليل فقط، بل عن فساد الإرادة والباطن. قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]. وقد ذكر الغزالي ويؤكد الغزالي أن فساد القلب بالهوى يفضي إلى تعطيل وظيفة الاستبصار، وإلى خفوت نور اليقين، حتى يعجز الإنسان عن إدراك الحق إدراكًا مثمرًا، ولو وُعظ أو ذُكّر؛ لأن دخان الشهوة إذا ملأ القلب أظلم، وإذا أظلم انحجبت عنه العواقب، واستجاب لتزيين الشيطان وغروره.

وعلى هذا الأساس، فإن بناء الحصانة الفكرية لا ينفصل عن مجاهدة الهوى وتزكية الباطن؛ إذ لا يكفي قيام الدليل مع قلبٍ مشحون بالشهوة، كما لا يكفي حضور الموعظة مع نفسٍ مائلة إلى التبرير والاتباع (الغزالي، د.ت، 47/3). وبيّن القرطبي في تفسير آية الصف أن الزيغ الأول من العبد كان سببًا في العقوبة بالزيغ الثاني، وفي ذلك دلالة على أن الانحراف المعرفي قد يكون ثمرة انحراف إرادي أو خلقي (القرطبي، 1964م، 55/18). وهذا يكشف أن مناعة الفكر في القرآن ليست مشروعًا ذهنيًا بحتًا، بل هي مشروع تزكيةٍ وتطهيرٍ للنفس من العوامل التي تعميها عن إدراك الحق.

ومن الأصول التي لا ينبغي إغفالها أيضًا الوعي بسنن الله في الهداية والضلال؛ لأن القرآن لا يعرض الحق والباطل عرضًا ساكنًا منفصلًا عن حركة التاريخ والنفوس، بل يبين أن لله سننًا ماضية في نصر الحق، وامتحان المؤمنين، وخذلان المكذبين، وتقلب الأيام بين الناس. وهذا الأصل يبني في النفس مناعة من الاضطراب الناشئ عن قراءة الوقائع قراءة سطحية. فإذا رأى الإنسان غلبة الباطل زمنًا أو كثرة أتباعه أو شدة حضوره، ولم يكن عنده وعي بالسنن، ربما ظن أن ذلك دليل صحته أو غلبته النهائية. أما القرآن فيردّ هذه الظواهر إلى مقاييس أعمق، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: 137]. وقد أوضح الطبري أن الآية تدعو إلى الاعتبار بما حلّ بالمكذبين في الأمم السابقة، ليعلم الناس أن للحق والباطل سننًا لا تنخرم (الطبري، 2001م، 72/6). وبيّن ابن عاشور أن النظر في السنن يمنح العقل قدرة على تفسير الأحداث في ضوء قانون إلهي، لا في ضوء الانفعال العابر (ابن عاشور، 1984م، 101/4). ومن هنا فإن الوعي بالسنن أصل تحصيني يحمي من الانبهار باللحظة ومن اليأس عند الشدة.

وعند جمع هذه الأصول يظهر أن القرآن يبني مناعة الفكر من خلال منظومة متكاملة، لا من خلال عنصر واحد منفرد. فالتوحيد يحرر المرجعية ويوحّدها، والوحي يضبط مصادر المعرفة ويهدي العقل، والإيمان بالغيب والآخرة يوسع أفق الإنسان ويمنحه غايةً ومآلًا، وتحرير العقل من التقليد والظن يمنحه أدوات التمييز، وسلامة الفطرة تزوده بالقابلية الأصلية للحق، وتزكية القلب تمنع الهوى من أن يفسد النظر، والوعي بالسنن يقيه من القراءات الساذجة للواقع. وهذه الأصول إذا ترسخت أنتجت إنسانًا لا يتزعزع بسهولة، لأنه لا يواجه الشبهة من فراغ، بل من داخل بناء

عقدي متماسك. ولذلك فإن الحصانة الفكرية في القرآن ليست نتيجة كثرة الجدال، بل نتيجة صحة التأسيس أولًا، وهذا ما سيظهر بصورة أوضح عند دراسة المنهج القرآني في إقامة اليقين وتحقيق الحماية الفكرية في المبحث الثاني.

المبحث الثاني

المنهج القرآني في تأسيس اليقين وتحقيق الحماية الفكرية

المطلب الأول: مسالك القرآن في تأسيس اليقين وبناء العقل المستبصر

إذا كانت الحصانة الفكرية ثمرةً من ثمرات البناء العقدي الصحيح، فإن هذا البناء لا يتحقق في القرآن بطريق الدعوى المجردة، ولا عبر إلقاء النتائج النهائية في ذهن الإنسان دون تهيئته لأسبابها، بل يتحقق من خلال منهج قرآني متكامل في تأسيس اليقين، يجمع بين البرهان العقلي، والإيقاظ الفطري، والتذكير التاريخي، واللمس الوجداني، وربط القلب بالعقل، حتى يصير الإيمان علمًا منيرًا لا مجرد انتماء موروث أو تقليد ذهني. فالقرآن لا يريد من الإنسان أن يكرر ألفاظ الإيمان فحسب، بل أن يبلغ مرتبة البصيرة التي تجعله يرى الحق في مواضعه، ويميز به بين الدليل والشبهة، ويثبت عليه عند الاضطراب. ومن هنا كان النظر في مسالك القرآن في تأسيس اليقين ضرورة لفهم كيفية بنائه للحصانة الفكرية من داخل الوعي ذاته.

ومن أوضح هذه المسالك الاستدلال بالخلق على الخالق، وهو مسلك يتكرر في القرآن بصور متعددة، لأنه يمسّ أبسط حقائق الوجود وأقربها إلى إدراك الإنسان. فالقرآن يردّ الإنسان إلى نفسه وإلى العالم من حوله، لا ليكتفي بالمشاهدة الحسية، بل ليتجاوز بها إلى ما تدل عليه من موجد حكيم قادر. ومن أجمع الآيات في هذا الباب قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35]. وقد بيّن الطبري أن معنى الآية إنكار أن يكون الناس وُجدوا من غير خالق، كما ينكر أن يكونوا خلقوا أنفسهم؛ لأن كلا الأمرين باطل ممتنع، فيتعين أن لهم خالقًا هو الله سبحانه (الطبري، 2001م، 596/21). وأوضح الرازي أن الآية ساقت البرهان على وجه الحصر العقلي؛ لأن الموجود إما أن يكون وجد بلا موجد، أو أوجد نفسه، أو أوجده غيره، والأولان باطلان ضرورةً، فثبت الثالث، وهو وجود الخالق المختار (الرازي، 1420 هـ، 215/28). وهذه الطريقة القرآنية في الحجاج تبني في النفس ملكة النظر المرتب، وتمنعها من قبول الوجود بوصفه أمرًا اعتباطيًا أو مجهول الأصل.

ويتكامل مع هذا المسلك الاستدلال بالإتقان والنظام، لأن القرآن لا يلفت النظر إلى مجرد وجود الأشياء، بل إلى هيئة وجودها، وترتيبها، وتناسبها، وانضباط سننها. فالكون في الخطاب القرآني ليس ازدحامًا فوضويًا، بل بناءٌ محكم يدلّ بإتقانه على علم الفاعل وحكمته وقصده. وقد قال الله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88]. وذكر القرطبي أن الإتقان هنا هو إحكام الخلق وتقديره على وجه لا خلل فيه ولا تناقض، وهو شاهد على كمال القدرة والعلم (القرطبي، 1964م، 244/13). وبيّن ابن عاشور أن القرآن يستثمر انتظام العالم لإثبات أن وراءه فاعلًا حكيمًا لا يصدر عنه عبث ولا اضطراب، وأن العقل إذا استقام في النظر إلى النظام أحاله ذلك على القصد والوحدة والحكمة (ابن عاشور، 1984م، 34/20). ومن هنا فإن القرآن لا يواجه نزعات العبث والعدم بمجرد الوعظ، بل يقيم أمام الإنسان بنية الوجود نفسها بوصفها شهادةً كونية على الحقيقة.

ويعتمد القرآن أيضًا الاستدلال بالفطرة، وهو من ألطف مسالكه وأعمقها أثرًا؛ لأن الخطاب هنا لا يخرج بالإنسان إلى الخارج فقط، بل يعود به إلى الداخل، إلى ما أودعه الله فيه من قابلية أولية لمعرفة الحق والأنس به. قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]. وقد بيّن ابن كثير أن معنى الآية أن الله خلق عباده متهيئين لقبول الحق والتوحيد، وأن الانحراف طارئ ناشئ عن المؤثرات المفسدة (ابن كثير، 1999م، 313/6). وأوضح ابن عاشور أن الدين الذي جاء به الوحي ليس غريبًا عن الفطرة، بل هو موافق لها، وأن الخلل يقع حين تُطمس هذه الفطرة أو تُغطى بالعادات والأهواء والانحرافات (ابن عاشور، 1984م، 90/21). وهذا المسلك مهم جدًا في تأسيس اليقين؛ لأن الإنسان إذا استشعر أن الحق ليس مفروضًا على فطرته من الخارج، بل هو موافق لأصل خِلقته، كان ذلك أدعى لرسوخه وثباته.

ومن المسالك المحكمة أيضًا الاستدلال بالتاريخ والسنن. فالقرآن لا يورد أخبار الأمم السابقة على سبيل الحكاية المجردة، بل يقدّمها بوصفها مادةً للاعتبار، ومختبرًا سننيًا يربط الحاضر بالماضي، ويكشف أن حركة البشر ليست عشوائية، بل تجري وفق قوانين إلهية ثابتة. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: 137]. وذكر الطبري أن الآية تدعو إلى اعتبار ما وقع للمكذبين من قبل، ليتبين للناس أن تكذيب الحق له عواقب مطردة، وأن لله سننًا في نصر أوليائه وخذلان أعدائه (الطبري، 2001م، 76/6). وبيّن ابن

عاشور أن هذا اللون من الاستدلال يربي العقل على قراءة الوقائع في ضوء القوانين والسنن، لا في ضوء اللحظة الآنية والانفعالات السطحية (ابن عاشور، 1984م، 101/4). ومن هنا كان القرآن يحصّن الوعي من الانبهار بالقوة المؤقتة للباطل، ومن اليأس الذي قد ينشأ عند تأخر ظهور الحق.

كما يسلك القرآن الاستدلال بالبداءة على الإعادة في باب البعث والمعاد، وهو من أظهر وجوه بناء اليقين في القضايا الغيبية. فالمنكر للبعث قد يتوهم أن الإعادة أبعد من البداءة، فجاء القرآن يرده إلى أصلٍ عقلي واضح، وهو أن من قدر على الإنشاء أولًا لا يعجز عن الإعادة ثانيًا. قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: 79]. وقد بيّن الشنقيطي أن هذا الاستدلال من أقوى ما يحتج به القرآن على منكري البعث، لأنه ينقل العقل من الإقرار بالمبدأ إلى الإقرار بالمعاد بطريق واضح لا التباس فيه (الشنقيطي، د. ت، 14/6). وذكر الرازي أن الاحتجاج بالبداءة على الإعادة إنما هو إلزام عقلي لمن أقر بالخلق الأول ثم استبعد الثاني، لأن الاستبعاد هنا لا يقوم على برهان بل على وهمٍ ناشئ من قصر النظر (الرازي، 1420 هـ، 309/26). وهذا المسلك من شأنه أن يعلّم العقل طريقة في الانتقال المنطقي من المعلوم إلى المجهول، وهي ملكة أساسية في بناء الحصانة الفكرية.

ومن المسالك القرآنية المهمة إقامة الحجة بنقض التناقضات الكامنة في دعاوى الباطل. فالقرآن لا يقتصر على عرض الحق وإثباته، بل يكشف ما في الباطل نفسه من خلل داخلي وتهافت بنيوي. ففي نقد الشرك مثلًا، لا يكتفي القرآن بإثبات توحيد الله، بل يفضح تهافت من عبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يملك شيئًا. قال تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: 66]. وذكر القرطبي أن الآية احتجاج عقلي على بطلان عبادة غير الله؛ لأن المعبود بحق لا بد أن يكون متصفًا بصفات الكمال والقدرة والتدبير، فإذا انتفت هذه المعاني بطل أصل الاستحقاق للعبادة (القرطبي، 1964م، 302/11). وبيّن الباقلاني أن من أوجه الحجة الصحيحة إظهار فساد الدعوى من داخلها، لأن التناقض دليل بطلانها وعدم صلاحيتها للاستناد (الباقلاني، د. ت، ص44). وهذا المسلك يعصم العقل من الانخداع بالشعارات المزخرفة، لأنه يعلمه أن يطلب الاتساق الداخلي للدعوى لا مجرد بريقها الخطابي.

ويستعمل القرآن كذلك أسلوب الأسئلة الكاشفة، وهو أسلوب تربوي بليغ، لا يقف عند حدود نقل الجواب، بل يدفع المخاطَب إلى المشاركة في الوصول إليه. فالقرآن يكثر من الاستفهامات من

قبيل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وهذه ليست مجرد صيغ بلاغية، بل أدوات منهجية لتفعيل العقل وإخراجه من التلقي السلبي إلى النظر الفعّال. وقد أشار دراز إلى أن القرآن من خصائصه أنه لا يلغي دور العقل في التلقي، بل يحفزه ويوقظه ويأخذ بيده إلى مواضع الدليل حتى يكون الإيمان ثمرة مشاركة واعية لا قبولًا خامدًا (دراز، 2005م، ص131). وهذا اللون من البناء شديد الصلة بالحماية الفكرية؛ لأن العقل الذي اعتاد السؤال المنهجي، وطلب البرهان، والتفكر في الدلالات، يكون أقل قابلية للوقوع ضحية الخطابات السريعة أو الشبهات المرسلة.

كما أن القرآن يربط بين العقل والقلب في تأسيس اليقين، فلا يجعل المعرفة الحقة مجرد عملية ذهنية محضة، بل يجعل لها بعدًا وجدانيًا وأخلاقيًا وروحيًا. وهذا من أعظم أسرار بنائه للحصانة؛ لأن الإنسان لا يضل بسبب نقص الحجج فقط، بل قد يضل بسبب موت القلب، أو غلبة الهوى، أو انعدام الاستعداد الداخلي للحق. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]. وذكر أبو حيان أن المراد بـ"من كان له قلب" من كان له عقل حيّ حاضر ينتفع به، لا من له جارحة فقط (البحر المحيط، 2000م، 124/8). وبيّن ابن عاشور أن الآية تشير إلى أن الانتفاع بالدلائل متوقف على حضور باطني يجعل النفس قابلة للتذكر والاعتبار، وأن مجرد عرض البرهان لا يكفي إذا كان القلب معرضًا أو مغلقًا (ابن عاشور، 1984م، 325/26). ومن هنا فإن اليقين القرآني ليس يقينًا منطقيًا جافًا، بل يقينٌ حيٌّ تتفاعل فيه المعرفة مع الاستعداد الداخلي، وهذا ما يمنحه قوة الثبات ومناعة الرسوخ.

ومن مجموع هذه المسالك يظهر أن القرآن يؤسس اليقين على شبكة متكاملة من الأدلة والطرائق: فهو يستدل بالخلق، والنظام، والفطرة، والتاريخ، والسنن، والبداءة والإعادة، ونقض التناقضات، والاستفهام الكاشف، وربط القلب بالعقل. وهذه الشمولية هي التي تجعل اليقين القرآني أعمق من مجرد القناعة الذهنية السطحية؛ لأنه يتغلغل في طبقات النفس كلها، ويعيد بناء الإنسان معرفيًا وروحيًا. ولذلك فإن الحصانة الفكرية التي تنتج عن هذا اليقين ليست مجرد قدرة على الجواب، بل هي رسوخ في الرؤية، وثبات في الموقف، واستقامة في المنهج، وهي ثمرة لا تتحقق إلا إذا تشرّب الوعي هذه المسالك القرآنية في النظر والتفكر والاعتبار.

المطلب الثاني: الوسائل القرآنية العملية في تحصين الفكر من الشبهات والانحرافات

إذا كان القرآن قد أسس اليقين من خلال مسالك البرهان والهداية، فإنه لم يكتف بذلك، بل وضع أيضًا وسائل عملية ومنهجية تحفظ هذا اليقين من التآكل، وتمنع الفكر من أن ينفذ إليه الزيغ عبر منافذ الغموض أو الهوى أو الاندفاع أو التلقي غير المنضبط. فالقرآن لا يبني الإيمان ثم يتركه عرضةً لكل طارئ، بل يقرّر قواعد في التعامل مع النصوص، ومع الأخبار، ومع الشبهات، ومع النفس، ومع الواقع، بحيث تبقى البنية العقدية التي غرسها محميةً من عوامل الاختراق. ومن هنا فإن الحصانة الفكرية في القرآن لا تقوم فقط على قوة الدليل، بل على حسن إدارة المعرفة، وصحة المنهج في التلقي والتفكير والتقويم.

ومن أهم هذه الوسائل ردّ المتشابه إلى المحكم، وهي قاعدة كبرى في صيانة الوعي من الاضطراب. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]. وقد ذكر السيوطي أن المحكم هو ما اتضح معناه واستقل بدلالته، وأن المتشابه ما لم يتضح إلا بردّه إلى غيره أو احتمل أوجهًا، وأن أهل الزيغ يجعلون المتشابه أصلًا ويتركون المحكم الذي يجب أن يكون هو المردّ والميزان (السيوطي، 1974م، 3/3). وأوضح الرازي أن الآية لا تعالج قضية تفسيرية فحسب، بل تؤسس منهجًا معرفيًا عامًا؛ لأن الزيغ كثيرًا ما ينشأ من تقديم الجزئي المحتمل على الكلي الواضح، أو من اقتطاع النص من سياقه المحكم وبناء المعتقد عليه منفردًا (الرازي، 1420 هـ، 137/7). وهذه القاعدة في غاية الأهمية في بناء الحصانة الفكرية، لأنها تمنع العقل من الافتتان بما يلوح إشكالًا في بعض الجزئيات، وتُبقيه متصلًا بالأصول القطعية التي تنتظم بها بقية المعاني.

ومن الوسائل القرآنية المحكمة كذلك التكرار التربوي للأصول الكبرى. فالقرآن يكرر قضايا التوحيد، والبعث، والوحي، وسنن الله، وعواقب المكذبين، لا لعجز في البيان، بل لأن النفس تحتاج إلى ترسيخ متجدد يثبت المعاني في العقل والقلب، ويمنعها من أن تُزاحمها المؤثرات الطارئة. وقد بيّن دراز أن التكرار في القرآن ليس تكرارًا حرفيًا فارغًا، بل عودة إلى الحقيقة الواحدة من زوايا متجددة، تُضاف فيها دلالات جديدة وتترسخ بها القناعة رسوخًا أعمق (دراز، 2005م، ص147). وهذا التكرار له وظيفة تحصينية واضحة؛ لأنه يحفظ الأصول من التآكل تحت ضغط النسيان أو التبلد أو الاعتياد، ويجدد حضورها في الوعي باستمرار، فتظل قادرة على أداء دورها في الحماية الفكرية. ومن هنا كان القرآن يعيد عرض أدلة البعث بصور مختلفة،

ويكرر نقد الشرك والهوى والتقليد، ليبني في النفس مناعة لا تنطفئ بانطفاء الانفعال الأول.

ومن وسائل التحصين العظيمة في القرآن القصص القرآني، لأن القصة لا تنقل الفكرة في صورة تجريدية فحسب، بل تجسدها في مواقف وأحداث وشخصيات وصراعات، فتجعلها أقرب إلى الفهم والتأثر والاعتبار. وقد عرض القرآن قصص الأنبياء والأمم لتكون مختبرًا حيًا يرى فيه الإنسان كيف يعمل الحق والباطل في الواقع، وكيف تنشأ الشبهات، وكيف يثبت أهل الإيمان، وكيف تنتهي مصائر الفرق المختلفة. ففي قصة إبراهيم عليه السلام مثلًا تتجلى الحصانة العقدية بأوضح صورها؛ إذ واجه قومه ومحاججتهم وبيّن بطلان ما هم عليه من عبادة الكواكب والأصنام. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 76–79]. وقد أوضح الطبري أن هذا السياق ليس حيرةً حقيقية من إبراهيم، بل هو مناظرةٌ لقومه وإقامة للحجة عليهم ببيان أن ما يأفل ويغيب لا يصلح أن يكون ربًا (الطبري، 2001م، 356/9). وذكر القرطبي أن القصة تعلّم العقل كيف ينتقل من المحسوس المتغير إلى المعبود الحق الثابت الذي فطر السماوات والأرض (القرطبي، 1964م، 25/7). فالقصص القرآني بهذا المعنى ليس مجرد تاريخ، بل وسيلة لتدريب الوعي على مواقف التمييز والثبات.

ومن الوسائل العملية أيضًا ضرب الأمثال؛ لأن المثل ينقل الحقيقة من مستوى التجريد إلى صورة محسوسة تلتقطها النفس بسرعة، وتبقى آثارها في الذهن مدة أطول. وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17]. وذكر القرطبي أن هذا مثل للحق والباطل؛ فالزبد قد يعلو فوق الماء ويبدو ظاهرًا، لكنه لا يلبث أن يذهب، أما الماء النافع فيبقى ويستقر، وكذلك الحق قد يُستضعف زمنًا، لكن بقاءه هو الأصل، والباطل وإن ظهر فمآله إلى الزوال (القرطبي، 1964م، 295/9). وأوضح ابن عاشور أن هذا التمثيل يربّي النفس على عدم الاغترار بالبهرجة والعلو الظاهري للباطل، ويمنحها معيارًا في تقويم الحركات والأفكار من حيث المنفعة والبقاء والرسوخ (ابن عاشور، 1984م، 126/13). وهذا من صميم الحصانة الفكرية؛ لأن كثيرًا من الانحرافات تكتسب قوتها من الصخب الإعلامي أو الظهور المؤقت، لا من رسوخها أو حقيقتها.

ويُضاف إلى ذلك الجدل القرآني المنضبط، وهو من أهم الوسائل في حماية الفكر؛ لأن القرآن لا

يتهرب من الشبهة، ولا يطالب المؤمن بالانسحاب من ميدان الحجاج، بل يعلّمه كيف يواجه الاعتراضات بالحكمة، والعدل، والإحكام، دون انزلاق إلى الفوضى أو التعصب. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. يتجلى البعد التحصيني في المنهج القرآني في أسلوب الجدال بالتي هي أحسن؛ لأن القرآن لا يشرع المجادلة على جهة الخصومة المجردة، بل يربطها بالحكمة وحسن الخطاب ورجاء هداية المخاطَب. وقد فسر ابن عطية الآية السابقة بأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى الله بتلطّف، وأن تكون المجادلة دون مخاشنة، وأن هذا المسلك يُتبع في حق من يُرجى قبوله للحق؛ مما يدل على أن الجدل المشروع في التصور القرآني ليس مجرد منازعة خطابية، بل وسيلة هادفة إلى إظهار الحق بأحسن أسلوب، وصيانة الوعي من الانزلاق إلى التعصب والعنف في التلقي والمحاجة (ابن عطية، 1422هـ، 431/3). وأوضح الجويني أن صحة النظر والحجاج لا تكون إلا بإحكام المقدمات وترتيب الأدلة واجتناب التلبيس، لأن فساد المنهج يفسد نتيجة الجدل ولو كانت القضية في أصلها صحيحة (الجويني، 1950م، ص73). ومن هنا فإن القرآن لا يكتفي بتعليم مضمون الحق، بل يعلّم كذلك أدب الوصول إليه وأدب الدفاع عنه، وهي وظيفة مركزية في تحصين العقل من الانكسار أو الفوضى.

كما يعتمد القرآن كشف الجذور النفسية للانحراف، وهذه وسيلة بليغة في الحماية الفكرية؛ لأن كثيرًا من الشبهات لا تقوم فقط على التباس معرفي، بل تجد أرضيتها الخصبة في الكبر، أو الهوى، أو حب التفلّت، أو الحسد، أو طلب العلو. والقرآن يكشف هذه العوامل حتى لا يظن الإنسان أن كل ما يعرض له من إشكال هو مسألة عقلية بريئة. قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]. ويرى الغزالي في تفسير الآية الكريمة أن المانع من الهداية قد يكون قائمًا في القلب لا في الدليل؛ فالآيات بيّنة، ولكن الكبر والهوى يحجبان أثرها. وقد بيّن الغزالي أن استيلاء الهوى على القلب يطفئ نور اليقين، ويضعف سلطان الإيمان، حتى لا يبقى للإنسان إمكان التوقف والاستبصار، ولو وُعظ أو ذُكّر؛ وبذلك يظهر أن من أعظم أسس الحصانة الفكرية تطهير القلب من الكبر والشهوة، حتى يبقى قابلًا لفهم الآيات والاهتداء بها (الغزالي، د.ت، 47/3). وبيّن ابن عاشور أن صرف هؤلاء عن الآيات معناه حرمانهم من الانتفاع بها بسبب ما قام في نفوسهم من الاستعلاء والفساد، لا لأن الآيات لم تكن بيّنة في نفسها (ابن عاشور، 1984م، 103/9). وهذا التحليل القرآني يعلّم الإنسان أن

يراجع قلبه كما يراجع فكره، وأن الحصانة لا تتم من غير محاسبة داخلية لأسباب الميل والانحراف.

ومن الوسائل القرآنية المهمة أيضًا التحذير من الظن والقول بغير علم. فالشبهة كثيرًا ما تتسع في البيئات التي يضعف فيها الانضباط العلمي، ويكثر فيها بناء المواقف على الانطباعات، أو على النقل غير المحقق، أو على الوهم الذي يُلبس لباس البرهان. وقد قرر القرآن قاعدةً عظيمة في هذا الباب بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]. وذكر القرطبي أن الآية تشمل النهي عن القول بلا علم، وعن الاتباع بلا بصيرة، وعن نسبة الأمور إلى غير تثبت، وهي قاعدة عامة في حفظ الاعتقاد والحكم والسلوك جميعًا (القرطبي، 1964م، 257/10). وقال تعالى أيضًا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: 23]، وذكر الراغب أن الظن إذا استُعمل في غير موضعه صار مضادًا لليقين ومفسدًا للنظر، لأن صاحبه يبني على ما لا ينهض حجةً في نفسه (الأصفهاني، 2009م، ص539). وهذا التحذير من شأنه أن يربّي العقل على التثبت، ويحميه من التورط في الأحكام المتسرعة أو القناعات السطحية.

ويرتبط بذلك ارتباطًا وثيقًا التثبت في الأخبار والوقائع، وهو أصل قرآني له أثر بالغ في الحصانة الفكرية المعاصرة خاصة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6]. وقد ذكر الطبري أن الله أمر المؤمنين بالتثبت من خبر الفاسق لئلا يصيبوا قومًا بجهالة، فتقع منهم المفسدة والندم (الطبري، 2001م، 348/21). وبيّن ابن كثير أن الآية أصل في قبول الأخبار وردّها، وأنها تعلم المؤمن ألا يبني موقفه أو حكمه على مجرد ما يسمعه حتى يتحقق من صدقه ووجهه (ابن كثير، 1999م، 356/7). وإذا كان هذا الأصل مهمًا في الأحكام الاجتماعية، فهو في القضايا الفكرية والعقدية أشد أهمية، لأن كثيرًا من الانحرافات والشبهات تنتشر عبر أخبار مبتورة، أو اقتباسات مشوهة، أو دعاوى منقولة بلا تحرير. ومن ثم فإن القرآن يجعل التثبت سياجًا يحمي الوعي من التورط في نتائج باطلة بسبب مقدمات مختلة.

ولا يغفل القرآن عن وسيلة عظيمة في تحصين الفكر، وهي ربط العقل بالذكر والعبادة؛ لأن الوعي إذا انفصل عن صلته بالله ضعفت مناعته، وصار أقرب إلى القلق والتقلب والتأثر بالمؤثرات العابرة. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. وقد ذكر القرطبي أن الطمأنينة هنا تعني سكون القلب إلى الحق وزوال اضطرابه وتردده عند ذكر الله ووعده وهدايته

(القرطبي، 1964م، 314/9). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، وبيّن ابن عاشور أن هذا النهي هو أثر تربية وتزكية يحدثه دوام الصلاة الصحيحة في النفس، فيمنعها من الانفلات وراء الأهواء والشهوات (ابن عاشور، 1984م، 254/20). وإذا كان الفحش والمنكر يشملان الجانب العملي، فإنهما لا ينفصلان عن الجانب الفكري؛ لأن الفكر المنحرف كثيرًا ما يتغذى من نفسٍ لم تُزكَّ ولم تتأدب بعبودية الله. ومن هنا فإن العبادة في القرآن ليست مجرد أداءٍ شعائري، بل عنصر أصيل في حفظ التوازن الداخلي للإنسان، وهو توازن لا تستقيم الحصانة الفكرية بدونه.

وإذا نُظر إلى هذه الوسائل مجتمعة، تبيّن أن القرآن يحيط الفكر بسياجٍ محكم من القواعد والآليات: يعلّمه كيف يقرأ النص، وكيف يتعامل مع الغموض، وكيف يزن الأخبار، وكيف يحاور، وكيف يراجع باطنه، وكيف يطلب العلم، وكيف يحفظ صلته بالله. وهذه الشمولية هي التي تجعل المنهج القرآني في التحصين أعمق من مجرد الردّ على شبهة بعينها؛ لأنه يعيد تشكيل آلية التفكير نفسها، ويجعل الإنسان أقدر على الوقاية قبل العلاج، وأصلب عند الفتنة، وأهدأ عند الاضطراب، وأبصر في التمييز بين ما يثبت وما يزول. ومن هنا تظهر الحصانة الفكرية في القرآن بوصفها نتيجة طبيعية لاجتماع اليقين، والمنهج، والتزكية، والمرجعية، والعبودية في بناء واحد متماسك.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بعد هذا العرض يتبين أن القرآن الكريم لم يقتصر في خطابه العقدي على تقرير حقائق الإيمان من حيث هي معارف تجب معرفتها، بل أقام في الوقت نفسه منهجًا متكاملًا في تأسيس اليقين وبناء الحصانة الفكرية. وقد كشف البحث أن الحصانة الفكرية في التصور القرآني ليست إجراءً خارجيًا عارضًا، ولا مجرد قدرة على المجادلة والرد، بل هي ثمرة بنية داخلية متماسكة تنشأ من رسوخ التوحيد، وصحة المرجعية، وسلامة الفطرة، واستقامة النظر، وحضور القلب مع الدليل.

كما خلص البحث إلى أن الصلة بين الحصانة الفكرية واليقين العقدي صلة جوهرية؛ إذ إن اليقين هو المادة التي تمنح الوعي ثباته، وتمنع الفكر من التزعزع أمام الشبهات. فكلما ازداد الإنسان رسوخًا في الإيمان بالوحي، والآخرة، والغيب، ووحدة المرجعية، ازداد وعيه مناعةً وقدرةً

على التمييز والثبات. وقد ظهر من خلال تتبع الآيات والتفاسير أن القرآن لا يكتفي بإقامة البرهان النظري، بل يربط بين المعرفة والوجدان، وبين الحجة وصفاء الباطن، حتى يكون الإيمان علمًا حيًا لا معرفةً ساكنة.

وتبيّن أيضًا أن القرآن يبني مناعة الفكر على أصول عقدية كبرى، في مقدمتها: التوحيد، والإيمان بالوحي، والإيمان بالغيب والآخرة، وتحرير العقل من التقليد الأعمى واتباع الظن، وسلامة الفطرة، وتزكية القلب، والوعي بسنن الله في الهداية والضلال. وهذه الأصول ليست متفرقة، بل تشكل منظومة واحدة إذا استقرت في النفس أنتجت عقلًا مستبصرًا وقلبًا ثابتًا.

كما أظهر البحث أن القرآن يعتمد في تأسيس اليقين وتحقيق الحماية الفكرية على مسالك متنوعة؛ منها: الاستدلال بالخلق، والإتقان، والفطرة، والتاريخ، والسنن، والبداءة والإعادة، ونقض التناقضات، والاستفهام الكاشف، وربط العقل بالقلب. ثم يتوج ذلك بجملة من الوسائل العملية التي تحفظ هذا البناء، مثل: ردّ المتشابه إلى المحكم، والتكرار التربوي للأصول، والقصص، وضرب الأمثال، والجدل المنضبط، وكشف الجذور النفسية للانحراف، والتحذير من الظن والقول بغير علم، والتثبت في الأخبار، وربط الوعي بالذكر والعبادة.

ومن أهم النتائج التي انتهى إليها البحث أن الحصانة الفكرية في المنهج القرآني لا تتحقق بردود جزئية متفرقة، بل تبدأ من التأسيس قبل المواجهة، ومن البناء قبل الدفاع، ومن تحرير المنهج قبل مجرد تكثير الأجوبة. وهذا يعني أن أي مشروع علمي أو تربوي يراد له أن يسهم في حماية الوعي المسلم لا بد أن يعود إلى القرآن من جهة بناء الأصول، لا من جهة الاستشهاد الجزئي فحسب.

ويوصي البحث بما يأتي:

العناية بالدراسات العقدية القرآنية التي تربط بين اليقين والأمن الفكري والحصانة المعرفية.

الإفادة من المنهج القرآني في بناء المقررات التربوية والدعوية، بحيث يكون التركيز على تأسيس الأصول قبل معالجة المظاهر.

توجيه الجهود العلمية إلى دراسة الشبهات المعاصرة في ضوء القواعد القرآنية الكبرى في النظر والاستدلال والتزكية.

العناية ببرامج التربية الإيمانية التي تجمع بين العلم والعبادة والتفكر، لأن الحصانة الفكرية لا تتم

بالمعرفة الذهنية وحدها.

والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

1. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974هـ.
2. إحياء علوم الدين، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، د.ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
3. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، الجويني، عبد الملك بن عبد الله، تحقيق: محمد يوسف موسى، وعلي عبد المنعم عبد الحميد، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1950.
4. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، د.ت.
5. إعجاز القرآن، الباقلاني، محمد بن الطيب، تح: السيد أحمد صقر، د.ط، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
6. الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، محمد بن محمد، تح: إنصاف رمضان، ط1، دار قتيبة، دمشق، 2003.
7. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تح: صدقي محمد جميل، د.ط، دار الفكر، بيروت، 2000.
8. التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، د.ط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
9. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تح: سامي بن محمد السلامة، ط2، دار طيبة، الرياض، 1999.
10. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠ هـ)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – القاهرة، مصر، 2001م.

11. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية – القاهرة، 1964م.
12. دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1992.
13. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، ط3، دار صادر، بيروت، 1994.
14. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1422هـ.
15. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، ط3، دار إحياء التراث العربي – بيروت، 1420هـ.
16. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، تح: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، دمشق، 2009.
17. مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام محمد هارون، د.ط، دار الفكر، بيروت، 1979.
18. الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، دار ابن عفان، الخبر، 1997.
19. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز (ت ١٣٧٧ هـ)، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥ م.

المراجع بالإنجليزية:

1. *Al-Itqān fī ʿUlūm al-Qurʾān* (Mastery in the Sciences of the Qur'an), ʿAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr, Jalāl al-Dīn al-Suyūṭī (d. 911 AH), edited by Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, Egyptian General Book Authority, 1974.

2. *Iḥyāʾ ʿUlūm al-Dīn* (The Revival of the Religious Sciences), al-Ghazālī, Abū Ḥāmid Muḥammad ibn Muḥammad al-Ghazālī al-Ṭūsī (d. 505 AH), no edition stated, Dār al-Maʿrifah, Beirut, n.d.
3. *Al-Irshād ilā Qawāṭiʿ al-Adillah fī Uṣūl al-Iʿtiqād* (Guidance to the Definitive Proofs in the Principles of Belief), al-Juwaynī, ʿAbd al-Malik ibn ʿAbd Allāh, edited by Muḥammad Yūsuf Mūsā and ʿAlī ʿAbd al-Munʿim ʿAbd al-Ḥamīd, 1st ed., Maktabat al-Khānjī, Cairo, 1950.
4. *Aḍwāʾ al-Bayān fī Īḍāḥ al-Qurʾān bi-al-Qurʾān* (The Lights of Clarification in Explaining the Qur'an through the Qur'an), Muḥammad al-Amīn ibn Muḥammad al-Mukhtār ibn ʿAbd al-Qādir al-Jaknī al-Shinqīṭī (d. 1393 AH), Dār al-Fikr for Printing, Publishing, and Distribution, Beirut, Lebanon, n.d.
5. *Iʿjāz al-Qurʾān* (The Inimitability of the Qur'an), al-Bāqillānī, Muḥammad ibn al-Ṭayyib, edited by al-Sayyid Aḥmad Ṣaqr, no edition stated, Dār al-Maʿārif, Cairo, n.d.
6. *Al-Iqtiṣād fī al-Iʿtiqād* (Moderation in Belief), al-Ghazālī, Muḥammad ibn Muḥammad, edited by Inṣāf Ramaḍān, 1st ed., Dār Qutaybah, Damascus, 2003.
7. *Al-Baḥr al-Muḥīṭ* (The Vast Ocean), Abū Ḥayyān al-Andalusī, Muḥammad ibn Yūsuf, edited by Ṣidqī Muḥammad Jamīl, no edition stated, Dār al-Fikr, Beirut, 2000.
8. *Al-Taḥrīr wa-al-Tanwīr* (Verification and Enlightenment), Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir, no edition stated, Tunisian House of Publishing, Tunis, 1984.
9. *Tafsīr al-Qurʾān al-ʿAẓīm* (The Great Exegesis of the Qur'an), Ibn Kathīr, Ismāʿīl ibn ʿUmar, edited by Sāmī ibn Muḥammad al-Salāmah, 2nd ed., Dār Ṭaybah, Riyadh, 1999.
10. *Jāmiʿ al-Bayān ʿan Taʾwīl Āy al-Qurʾān* (Tafsīr al-Ṭabarī / جامع البيان عن تأويل آي القرآن), Abū Jaʿfar Muḥammad ibn Jarīr al-Ṭabarī (224–310 AH), edited by ʿAbd Allāh ibn ʿAbd al-Muḥsin al-Turkī, 1st ed., Dār Hajar for Printing, Publishing, Distribution, and Advertising, Cairo, Egypt, 2001.
11. *Al-Jāmiʿ li-Aḥkām al-Qurʾān* (Tafsīr al-Qurṭubī / الجامع لأحكام القرآن), Abū ʿAbd Allāh Muḥammad ibn Aḥmad al-Anṣārī al-Qurṭubī,

edited by Aḥmad al-Bardūnī and Ibrāhīm Aṭfīsh, 2nd ed., Dār al-Kutub al-Miṣriyyah, Cairo, 1964.

12. *Dalāʾil al-Iʿjāz* (Proofs of Eloquence / Miraculousness), al-Jurjānī, ʿAbd al-Qāhir, edited by Maḥmūd Muḥammad Shākir, 3rd ed., Maktabat al-Khānjī, Cairo, 1992.
13. *Lisān al-ʿArab* (The Tongue of the Arabs), Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram, 3rd ed., Dār Ṣādir, Beirut, 1994.
14. *Al-Muḥarrar al-Wajīz fī Tafsīr al-Kitāb al-ʿAzīz* (The Concise Redaction in the Exegesis of the Noble Book), Abū Muḥammad ʿAbd al-Ḥaqq ibn Ghālib ibn ʿAbd al-Raḥmān ibn Tammām ibn ʿAṭiyyah al-Andalusī al-Muḥāribī (d. 542 AH), edited by ʿAbd al-Salām ʿAbd al-Shāfī Muḥammad, 1st ed., Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, Beirut, 1422 AH.
15. *Mafātīḥ al-Ghayb* (The Keys of the Unseen), also known as *Al-Tafsīr al-Kabīr* (The Great Exegesis), Abū ʿAbd Allāh Muḥammad ibn ʿUmar ibn al-Ḥasan ibn al-Ḥusayn al-Taymī al-Rāzī, known as Fakhr al-Dīn al-Rāzī, Khaṭīb al-Rayy (d. 606 AH), 3rd ed., Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī, Beirut, 1420 AH.
16. *Mufradāt Alfāẓ al-Qurʾān* (Lexicon of Qur'anic Vocabulary), al-Rāghib al-Aṣfahānī, al-Ḥusayn ibn Muḥammad, edited by Ṣafwān ʿAdnān al-Dāwūdī, 1st ed., Dār al-Qalam, Damascus, 2009.
17. *Maqāyīs al-Lughah* (Measures of Language), Ibn Fāris, Aḥmad ibn Fāris, edited by ʿAbd al-Salām Muḥammad Hārūn, no edition stated, Dār al-Fikr, Beirut, 1979.
18. *Al-Muwāfaqāt* (The Reconciliations / الموافقات), al-Shāṭibī, Ibrāhīm ibn Mūsā, edited by Abū ʿUbaydah Mashhūr ibn Ḥasan Āl Salmān, 1st ed., Dār Ibn ʿAffān, al-Khubar, 1997.
19. *Al-Nabaʾ al-ʿAẓīm: Naẓarāt Jadīdah fī al-Qurʾān al-Karīm* (The Great News: New Reflections on the Noble Qur'an), Muḥammad ibn ʿAbd Allāh Darāz (d. 1377 AH), prepared by Aḥmad Muṣṭafā Faḍliyyah, with an introduction by Prof. ʿAbd al-ʿAẓīm Ibrāhīm al-Muṭʿinī, Dār al-Qalam for Publishing and Distribution, 2005.